محمود الريماوي

الرصاصة الرابعة

الى علي البتيري .

١ ـ اعطينا اخبارا ايتها الجريدة .

ودعت صديقي عند باب بيته وشكرته : فلم يبق لنا ما نخوض فيه، وانجهت في الطريق الترابي الضيق صوب وسط المخيم ، ولما وصلت هناك انعطفت مرة اخرى الى المقهى الذي كنا نجتمع فيه لاستريح من تعب لم اكن بلفته ، فاذا المقهى غاص مزدحم ، تتعالى وتختلط فيه الاصوات ، مع سحب دخان السجائر ، سلمت على بعضهم وشكرت بعضهم . وآثرت الجلوس في الفسحة الدائرية عند المدخل ، تحت النافذة ، ففي الداخل ليس الا غرفة ضيقة كانت من قبل صالونا للحلاقة مرة ، ومرة محلا للخياطة ، ومرة بقالة . الراديو يبث اغاني وطنية تتحول مع الضجيج الى حشرجة محنقنة منغمة ، والرواد يلعبون الورق او الطاولة ويتحدثون في السياسة ويتهمون بعضهم بالجهل ، ويقسمون اغلظ الايمان .

شو في اخبار ؟ جاءني ابو محمد صاحب المقهى وسأل : قهوة سكر خفيف ؟ وفتحت جريدتي ، واخذت اقرأ بلهفة ودهشة ، ولاحظ جاري وهو في عمر والدي ، فترات شرودي ، وما ان وضعت الجريدة مرة ثانية حتى سألني بعد شيء من التفحص والتردد ، ثم باستئذان سريع : شو في اخبار استاذ ؟ فكدت اجيبه : ما في شي ، لكني لم البث ان استدركت نفسي ، فان هذا ليس لائقا ، ليس جوابا ، ما دام السائل هو واحد من مخيمنا . وحتى اتخلص من عبء الاجابة ، قلت له : هل تحب ان اقرأ لك ؟ فقال على الفور : تفضل . فقرأت له عناوين الصفحة الاولى ، وحاول ان يقاطعني عدة مرات ، فأقول له : حلمك علي ، هناك خبر ثان . ولما انتهيت وضعت الجريدة الى جانبي على الكرسي الشاغر : فسألني عن الانسحاب والنفط وضغط اميركا ، ثم قال وكأنه يكلم نفسه : هل اننا بعد كل هذا رجعنا كما كنا ؟ ، وقد اجبته ان الوضع مختلف ، فشعر بالاطمئنان وبدا انه اكتفى ، وحتى يشكرني سألني على سبيل المجاملة : نحن نعرف بعضنا ، اليس كذلك ؟ قلت هو كذلك يا اخ مصطفى واعرف اخاك الاستاذ احمد . فابتسم بسرور ، لكن عينه ظلت زائغة على الجريدة طمعا بمزيد من الاخبار ، فقلت باختصار : انها نفس اخبار الراديو ، فهز رأسه وقد تحول اطمئنانه السابق الى انتباه وتأمل : الظاهر هيك .. يعني بس هيك استاذ ؟ فقلت : انك تسمع مثلي ، واخذ ينظر الي بأمل ودهشة ، وقد استغرقه تأمل غير عابر ، وقال دون ان يقابلني وجهه : شكرا استاذ غلبناك (يقصد انه اتعبني) .. ، لا ابدا لم يتعبني .

لقد كنت دائما اختار قراءة الصحف في مكان غير عام ، لانك اذا ما فتحت جريدة امام احد من اهل مخيمنا ، وخاصة من هم متأخرون في السن ، فلا بد وان يبادرك وبفضول شديد بالسؤال عن الاخبار . حتى لو كنت ماشيا في الشارع ، ورأى احد منهم الجريدة في يدك ، فلا مفر من ان يستوقفك ما تيسر من الوقت ، بالحاح عائلي لكنه الحاح لا مناص منه : شو في اخبار ؟ . انها عادة متحكمة بهم ، واذا كنت صريحا معهم وقلت باختصار : ما في شي ، فانهم والحالة هذه لا يصدقونك ، وفوق ذلك يظنون بك الظنون : اما يعتبرونك متعاليا متعالما عليهم ، فلماذا الكبرة (اي الفرور) يا ابن فلان ، او انك ،بدون حياء منك ، تقرأ ولا تفهم الذي تقرأه . ويحدث ان سؤالهم قد يتكرر في النهار الواحد . اذا صادفوك وسألوك ساعة الصبح ، فهذا لا يمنع ان يسألوك بعد الظهر ، فما دامت الجريدة معك ، فان معك الاخبار .

نهض جاري لينهب الى حال سبيله ، وحين وقف التفت الي . ما اخبار الشيخ من عندك ، فقلت : بخير ، معنويانه احسن . فقال : كنت اراك معه كثيرا ، انك لا تعلم انه مريض ؟ فوجئت للوهلة الاولى ، وقلت دون ان تشي لهجتي بالمفاجأة : اني لا اعلم فهل هو حقا مريض ؟ فقال على الفور وبتأكيد : يبدو انك انقطعت عنه ، اذا لم يكن مريضا فانه ليس بخير ، كان الله في عونه . وخرج الاخ مصطفى الى الشارع، متأهبا لكنه متثاقل وفكرت انا بالخروج ايضا من هذا المقهى الذي خرج عن هدوء الايام السابقة .

٢ ـ من كان يمنعها ؟

مضى اسبوع ولم ار الشيخ . كنت اقضي اوقاتي في البيت مع اشقائي ، او مع بعض الاصدقاء ، نستهلك الوقت .. يتحدث احدنا عن المعجزة ، او المفاجأة ، او موازين القوى ، او الخطة ، او الاسرى الاسرائيليين ، او الاحتمالات .

فهل يكون الشيخ اصابه مكروه في هذه المدة القصيرة ؟ في كل مرة اتاخر عنه ، يقول لي انك تنسى من يسأل عنك . لا انسى يا والدي ، ولكنها الاحوال ..

واذا شئت الحق ، فمن لم ينس نفسه في هذا الشهر المجيد . لقد تفرقنا من ايام قليلة فقط ، بعد ان كنا نجتمع ببعضنا حلقات ، في المقهى ، في بيت اي واحد منا ، في بيت الشيخ القصي ، وقد ضمنا موعد عزيز حبيب ، ولم يكن واحدنا ليختلي بنفسه ، هذا

صحيح . وصحيح ايضا اننا كنا نتحدث بحماس افتقدناه ، وندمنا عليه في ما مضى من سنوات عجاف . وكنت لو اتفق مرورك باحدى حلقاتنا وكان الشيخ فيها لسمعت مثل هذا الكلام ، وقعت الحرب ، طبعا ، وقعت هذه المرة ، ليست تراشقا ولا استنزافا ، حرب شاملة حقيقية. لدينا الرجال والسلاح فلماذا لا نحارب . المساندة قوية ، والان يظهر الطيب من الخبيث ، الوطني من الدجال . كان البعض لفكرة فيرأسه او هوى في نفسه ، يقول انها لن تقع ، فهل كان هذا معقولا في يوم ؟. من كان يمنعها ان تقع ؟.. هل يترك الواحد امرأته لغريب ؟ طيب بلاش. هل يترك الواحد عظام اجداده واولاده للكلاب ؟ هل يكون الواحد رجلا وذليلا في نفس الوقت ؟ هل العروبة والصهيونية اختان ؟ واذا ضاع الوطن فعلى ماذا يحكم الحاكم ؟ هل تظل الاذاعة تقول : امجاد يا عرب امجاد والاراضي محتلة الى ما شاء الله ، هل يصدقها احد بعد ذلك ؟ هل الحرب تصلح لكل شعوب الدنيا ما عدا شعوب العرب ؟.. لقد وقعت الحرب على الاعداء ولن تقف حتى ترجع الحقوق الى اصحابها .. كنا نردد جميعا مثل هذه العبارات ، نهتف بها ، واذا ما سكتنا قليلا لنصغي لاخر بيان ، فقد كنا نسمع العبارات ذاتها ، تصعد من نفوسنا غامضة مجلجلة ، من الشهداء الذين نحملهم في ضمائرنا . كان الواحد يجلس مع جماعته ، لكنه يجلس ايضا ، مع ضميره وروحه ، مع ذات نفسه ، حتى ينسى بعض المرات من حوله . تأتيه صور الايام الماضية ، ايام طويلة لكن القلب يختصرها بالشعور المر بالفقدان ، ويطويه الصمت والشرود . تأتيه ذكرى الشباب الذين سقطوا من قبل لان الحرب لم تقع الا بعد ٢٥ عاما . كل واحد يتذكر الليل والويل والذل والنجوم البعيدة في السماء السوداء . وكل واحد يحمل سره. ويضم في حناياه ، الفرح اليتيم الذي جاء متاخرا ، يضمه ولا يكشفه للعيون ، كأنه ملكه وحده .

اما الشيخ فكان بادي الفرح ، وكنا ، وكنت انا اخاف واحدب عليه ، ليس لان الفرح مضر احيانا مثل الغم والحسرة خاصة على كبير السن ، ليس لهذا فقط ، بل للاسباب الاخرى . وكان الشيخ يحدق بي ويستنطقني ويبادر الى القول : اعرف ما الذي تفكر به ، النقطة ليست هنا . اذن اين النقطة يا والدي ؟ يستعد الشيخ للاجابة بعد ان يتنهد تنهيدة عميقة ، امارة عن الرضى والمسرة لا عن الحزن والالم . الرابعة رابحة ولو خسرت ، لانها تجعل الشرش يطق . ويساله احدنا سؤالا ملتويا : هل تقصد حلاوة الروح ؟ فيزعل الشيخ : لا يا طويل العمر ، انها رعشة الروح . فاقول انا معتذرا : وهل هي مسالة ارقام حسنة او سيئة ، هل يكون رقم ٤ احسن من ٣ مثلا ؟ ويقفز شخص اخر يدعي انه متواطىء معي : العرب تتفاءل بالرقم ٧ هذه عادتهم ، هل تريدهم ان يغيروا العادة ؟ فيضحك الشيخ ضحكة حليمة : لا تكن خبيثا ، انها ليست مسالة عدد ، انها مسالة تجربة . اذا لم تمتلك الثالثة ، اعطتك فرصة للنجاة والحياة . واذا اصابتك الرابعة ، فقد وهبت الحياة ذاتها . معنى هذا ان حياتك وشجاعتك قد عادت اليك وابتدأت من جديد . نسكت ونتردد عن البوح ، خاصة في تلك الايام التي اصبحت فيها الاخبار غير الاخبار . وتجد واحدا منا يقطع التردد، ويعترض على الشيخ قائلا : سأهدم نظريتك فلا تزعل مني انا ايضا . انها الحرب الاولى ، وليست الرابعة ، الاولى باعتراف الذين يحاربون انفسهم ، الم تكن تقول ان العرب لم يحاربوا من قبل ، فما رأيك ؟ فيهز الشيخ راسه اكثر من مرة ويرفع رأسه قائلا : لا ، الله يخلي لك شبابك ، ليست الاولى ، انها الرابعة . اذا هزمت فهذا لا يعني انها ليست حربا ، لماذا لا تريد ان تسمي الهزائم والنكبات حروبا ؟ يعني اذا انتصر عليك عدوك لانك لست مستعدا مثله ، لا تكون هذه حربا ؟ هذه الرابعة يا ابني وهي رابحة ، وها انت ترى بنفسك ، ومن يعش اكثر ير اكثر . لقد رأيت اكثر منك ، لاني عشت اكثر منك . ومناي ان لا ترى في حياتك مثلما رأيت انا . على كل حال وقعت الرابعة بتوفيق من الله ، والايام امامك ، انا في عمر اجدادك ، لم يبق امامي ما افعله او انتظره . ولعلكم بعدنا تحفظون ذكرنا وتكرمون قبورنا ، قبور جميع الاجداد ، تحفظونها وتحرسونها من الذين يسرقون التراب .

٣ ـ واقف عند الباب

رأى الشيخ اكثر مني ومن اهل المخيم . رأى الانراك وجنود الحلفاء وجنود الانجليز ، رأى حربا كونية . رأى كيف يموت الناس بسبب وبدون سبب ، حتى انه رأى اليهود يأتون من البحر افواجا افواجا ، ويهجمون على الارض ينهشونها كما تفعل حيوانات برية ، يحفرونها ويزرعونها بالاسلحة ، ويقولون لابنائها العرب : لا نريد الحرب ولا الموت خبيبي ، ولكننا سناخذ الارض .

وفي النزوح الاول ، وضع الشيخ بندقيته ، لكي يرجع اليها في وقت قريب مع الجيش العربي الذي اصدر الاوامر . ترك هناك ستين عاما تحت شمس فلسطين ، ليعبر ليل المنفى ، وفي الطريق ماتت زوجته بطلقة غير طائشة ، وتدحرج ابناؤه مع جموع النازحين في المسالك المجهولة ، ولا زال الشيخ ينتظر زيارة امرأته بعد الرجوع ويقرأ لها من سور الكتاب العزيز . ذاكرته طرية جاهزة ، ذاكرة مكتملة، تحفظ اخبار البلاد والجهاد ، مثلما تحفظ الصلوات . ورغم ان ابناء بلدته يازور هم اقل الناس عددا في المخيم ، الا ان علاقة عاطفية وطيدة تشده الى اهل المخيم . يعيش وحيدا بعد ان تزوجت بناته ، وتفرق ابناؤه في بلاد الله الواسعة (لكنها ضيقة على الغريب يا ابني)، ينفق عليه هؤلاء الابناء بين وقت واخر ، ويعينه الجيران في حياته اليومية . يتنقل بين البيت والمسجد والمقهى ، ولا يتاخر عن الاعراس والمآتم ، ومناسبات الاستقبال والوداع . ومنذ الهجرة لم يغادر المخيم الا الى المدينة القريبة . ثمة حياة تراكمت وتألفت له في هذه البيئة ، حياة نائية ومحدودة ، لكنه يلتصق بها : احببت هذا المخيم كما احببت ارضي . وعندما تسأله : كيف يحب اللاجيء مخيمه بكل ما فيه من مرارة وقساوة وصعوبة ؟ يقول لك وهو لا ينكر عليك استغرابك . لا اشم رائحة البلاد الا في هؤلاء العباد . ثم يضيف حتى لا تعتقد انه يضع المخيم في منزلة الوطن : نحن هنا على حدود الارض ، اول ريح تهب تحمل لنا اخبارها . نقف على الباب حتى لا نتأخر في الدخول . وكما يقول اخواننا النصارى : اقرعوا يفتح لكم . ذلك يختلف عن ان تكون الحدود بين غربة وغربة ، بين منفى ومنفى . المخيم هنا والافق في سماء بيوتنا .

ثم يستطرد شيخنا في مثل هذه المناسبة : كلما ابتعدت زادت الاسباب التي تجعل طريقك يختلط ، فلا تعرف كيف ترجع . وكلما ابتعدت زادت الاسباب التي تجعلك تفقد نفسك وتغير جلدك . تخلع جلدا وترتدي غيره . والصحيح تستبدل اسمك بأي اسم آخر يعطونك اياه . يقولون لك خذ المكافأة ، وفي هذه الحالة يعاقبونك . ذهب اولادي بعيدا ، ما اصعب ان يعيش الانسان ، فمن يضمن لي انهم يحفظون اسماءهم التي اعطيتهم اياها ؟ .

واكمالا لهذا الحديث ، في مثل هذه المناسبة ، يطلب الشيخ منك ان تتروى ، ويطرح عليك سؤالا صغيرا : ما اسمك ؟ علي . طيب يا علي لو واحد نادى عليك يا ابراهيم الا تزعل ، الا تحتج الا تعتبرها اهانة ، خاصة عندما يعرف ان اسمك هو علي وليس ابراهيم ؟ ولا يتوقف الشيخ هنا بل يكمل : ما دمنا اتفقنا ، وما دام اسمك علي وليس اي اسم اخر ، اليس معنى هذا انك ابن فلان ابن فلان ، من البلد الفلانية ، صفاتك كيت كيت ، واهلك واجدادك كذا وكذا .. وانا في هذا المخيم ، ومن يوم ما خلقني الله . وانجبني ابي من امي وحتى يختارني من خلقني انا فلسطيني من فلسطين . يعرف ذلك الراضي وغير الراضي . المبسوط والزعلان . الشرطي والاجنبي والغريب

والقريب والبعيد . اولادي تغربوا ، يجيئون ويرجعون مثـل الزوار ، يفكر كل واحد منهم اين سيعيش ويقضي عمره ، ولا يفكر متى سيختاره ربه ، واي تراب سيجمعه ؟

وعندما وقعت الرابعة ، كان الشيخ يفكر اكثر من اي واحد منا ، باي تراب سيجمعه ، كان يفكر بفرح ورضى ، فكما على الهضبة وعلى القناة ، هناك ايضا كانت الارض مبتلة ، وكانت لديه اسبابه : (يـا رب باب البيت قريب لكن يدي كليلة . يا رب ما اكثر الشوق والنجوى، ما اكبر قلبي ، وما اضيق يدي . يا رب ، لقد زرت حرمك وبيتـك وقبر رسولك واريد ان احج الاخيرة الى بيتي ، حتى يهدأ قلبي ويكتمل ايماني . يا رب ، ان المؤمن يتعلق بحيطان بيته ، مثلما يتعلق بنورك ، فهل اكون جاحدا . يا رب يسقط الشباب على ارضهـم حتى تتطهر وتتحرر ، كما سقط الصحابة الابرار من اجل دعوتك .. واسقط انـا في الطريق ، ويسقط قلبي في الفراغ والحيرة فهل قلبي كافر ؟ يـا رب انهم يرفعون السلاح والبيارق وانا ارفع الدعوات والضراعة فهل ارضى وهل تفر عيوني ؟ يا رب اني وحيد وجريح ومثلوم ومطعـون وطاعن في السن ولا اموت راضيا فلماذا لا يكفيني ايماني ؟ يا رب ان الحسرة تحرقني ، فاذا لم ادخل بيتي قبل ان اموت ، فمتى ادخله ؟ يا رب اعطني ثواب الجنه في الاخرة ، ولكن اعطني نعمة الارض فـي الحياة الدنيا ولا تمتني محروما ، لا تحرمني يا وهاب يا كريم ؟ يا رب تنكسر الاغصان والنصال والاصوات على جسدي الضعيف . يـا رب يجثم الجبل على صدري ، ويغص حلقي بالبحر وتحتل عقلي القبـور وتمشي دماء الشهداء في عروقي ، وتندفع الى عيوني دموع الامهـات ويحترق في احشائي الاطفال عصافير جنتك ، ويسقط على يدي ظل المساء الكليم فهل اقوم اصلي ؟ يا رب تصدح في الليل آهاتهم وتعبق كلماتهم الاخيرة ويهتف عبير دمائهم وانعثر في صلاتي فهل تغفر لي ؟) .

٤ ــ من يعش ثمانين ..

ذهبت الى الشيخ في بيته : غرفة في اقصى المخيم في زقـاق ضيق تلتصق بالبيوت الاخرى ، مسقوفة بالواح الالمنيوم ، وعلى سطحها تتناثر حجارة كبيرة الحجم ، باب معدني من صفيح رقيق احمر اللون ، على العتبة حذاء وبغل ورائحة رطوبة في الداخل .

القيت التحية ودخلت ، كان ثمة زائر نهض وتصافحنا ، لمعـت عينا الشيخ ورفع جذعه على السرير الخشبي الواطىء : لا تتعب نفسك كيف انت . على الجدران شهادات مدرسية وايات قرآنية وصور لاسلاك شائكة وبنادق تقف عليها حمائم وروزنامة مصورة من وكالة الغوث وصورة الرئيس عبدالناصر في الزي العسكري . في الغرفـة خزانة خشبيـة للملابس ، وطاولة مغطاة بشرشف فوقها صور العائلة وراديو ترانزستور وعلب ادوية وقنينة تحتوي على رمل ملون ، وتحت الطاولة صنـدوق خشبي ، وفي زاويـة الغرفة على يمين الباب وابور كاز وتنكـة وادوات مطبخ . جلست على المقعد الطويل ، وبجانبي الاخ الزائر وبجـانب سرير الشيخ كرسي عليه منفضة سجائر واكواب فارغة ..

كان الاخ الزائر يهم بالمغادرة اذ بدأ يتململ في جلسته ، قلت له انت فتحي الشاعر اليس كذلك ، فهز راسه ، كيف انت ما هي احوالك؟ ابتسم : ماشية . كيف هي ماشية معك ؟ فقال : ماشية حافية، فضحك الشيخ . واضاف فتحي : او ماشية عرجاء . فضحكنا معا مرة ثانية . غير ذلك ألم تكتب قصيدة لهذه المناسبة ؟ كتبنا دما كتبنا .. ، كيـف ذلك ؟: لما ابتدأت قلنا ان عهد احتقان الخيال قد ولى ، بدأنـا بقصيدة طويلة ، كل يوم مقطع او اكثر . ولم تكتمل ؟ لم تكتمل ، عندما صدر وقف اطلاق النار التزمنا به فرفعنا القلم ، وهكذا توقفت القصيدة ، هل نسمع ما كتبت ؟ لا ، لقد مزقتها . ثم نهض ، ووجـدت نفسي امد يدي واصافحه ، وصافح الشيخ وودعنا . وخرج تاركا وراءه ظـلالا رمادية ، او بقعة من الحزن الداكن .

قال الشيخ : هذا صديقك يتعجل الامور . لا يريد ان ينتظر .

قلت : يتعجل على ماذا ؟

قال : على كل شيء ولا يصبر .

ــ المهم انت الان ، جئت اسأل عنك كيف احوالك ؟

ــ سألت عنك العافية الحمدلله ، ما الاخبار ؟

ــ انها اخبار الراديو ، لم يتضح شيء ، لم نرك من اسبوع .

ــ لم اخرج الا بضع مرات الى الجامع .

ــ خير ان شاء الله ، هل حدث شيء ؟

ــ لا ، خير ، الحمدلله في كل الاحوال .

قال ذلك ونهض من فراشه ، وضع الكافية على رأسه واتجه الى الباب ببطء ، وقبل ان اساله قال :

ــ راجع ، وقد رجع بعد دقائق بخطوات اقل بطئا .

ــ سمعت عنك اليوم ، مم تشكـو يا والدي ؟

ــ ليس عندي شيء اشكو منه ، لا اشكو من شيء .

ــ لكن لست كعادتك ، لا تبدو انك في حالة طبيعية .

ــ وهل الحالة طبيعية ؟

ــ انها افضل كما تعرف ، هل قلبت وغيرت رأيك ؟.

ــ لا لم اقلب ، لم اغير رأيي .

ــ ما المسألة اذن ، لماذا لا تقول ؟ .

ــ لا تشغل بالك ، انها علامات العمر يا ابني ، علامات الشيخوخة فقط .

ــ لهجتك اليوم غريبة ، هل صرت عجوزا في اسبوع واحد ؟ .

ــ ليس في اسبوع ، في ثمانين سنة او اكثر الله اعلم . ثمانين ليست قليلة .

ــ تحيرني ولا افهمك هذه المرة ما الذي حدث ؟ . .

ــ انت خير الفاهمين ، الا تراني .. لو كنت شابا مثلك لمـا رايتني هنا ولا هكذا .

هل تريدني ان اكذب عليك لا سمح الله ، لقد تعبت ..كفاني، اريد ان استريح وافكر قليلا .

قال ذلك وقد هبطت نبرة صوته ، وبدت الاخاديد اللينة العميقة هي ما يميز وجهه الابيض الشاحب . شجن قديم محرور يقتات مـن الجسد الضعيف . عينان غائرتان ، رفعهما الى سقف الغرفة برجـاء وتأمل ، كما ينظر التائه في الصحراء الى غروب القمر ، فهل يبحث عن دليل اخر ؟ وبدا الشيخ متوحدا مرتدا ورأيت مسبحته على الفراش واصابعه فوقها وقد اخذ يتمتم بصوت مكتوم : يجيء الليل على التائه فلا تحضره الا الصحراء ومداها الذي لا يحد ، الافق الاسود المسدود ، والنجوم البعيدة مثل ايام القلب البعيدة المبددة .

ونحن في ذلك ، وحدتان في الصمت ، دخل علينا صبي يحمـل ابتسامة وصينية عليها ابريق شاي واكواب ، وادركت انه ابن الجيران وقد اوصاهم الشيخ عندما خرج بذلك ، ووضع الصينية على الكرسي بجانبه وهتف للشيخ : الشاي يا عمي .

ــ سلمت يداك سلم على الاخ .

ــ اهليـن .

نظر الصبي الى الحائط امامه الى الصور . قلت له انت وضعتها؟، قال : انا واخوي . وانفلت ناشطا خفيفا .

اخذت اسكب الشاي ، فيمـا ظل يديم النظـر الى السقف ، وعـاد للحديث الي : :

ــ الواحد عندما يكبر مثلي لا يفكر بحياته فقط ، بالايام القليلة التي بقيت له في هذه الفانية ، انه يفكر في نهايته ايضا ويذكر ربـه ويشكره . الم تحضر المرحوم جدك ؟ .

ـ ما مناسبة هذا الكلام ، انك في عافيتك ، لم تقل لي هل تشكو من شيء ؟ .

ـ لا ، الحمدلله الذي لا يحمد على مكروه سواه .

ـ هل انك لا تثق بي ، هل تخبيء عني ؟

ـ انت مثل اولادي ، ذهبوا بعيدا . اشتاق ان اراهم واسال حالي هل هم اولادي ، اشغالهم لا تسمح والسفر له تكاليف . هل تغير جوك في كندا ، الاولاد يسألون عن جدهم ، في كندا قال .تصور . انا شاعر بتعب فقط ، تعبت في الايام الاخيرة لا ادري ماذا اصابني مع ان صحتي كما هي . الواحد في مثل عمري لا تتحمل اكثر من طاقته ، للعمر احكام انت تعرف .

ليت العمر وحده الذي له احكام . والايام الباردة المظلمة. الارض التي نظل هناك والمخيم الذي يبقى هنا . مددت له كوب الشاي فرفع جذعه بصعوبة وحمله بيد مهتزة وعندما اقترب مني سمعته يتنفس بصعوبة مرتفع ولكن بصعوبة ، تنفس متقطع ، اي رياح تخرج من رئتيه ، اي هواء يدخل الى رئتيه . ينظر الي ليشكرني ، ويثبت عيونه فيوجهي، تلتقي نظراتنا ، فمن يمسك بهذه النجوى الاسيانة التي تفيض من عينين داميتين لعجوز وحيد . كاد كوب الشاي يسقط من يده فأخذته عنه حتى يرتاح في جلسته ثم اعدته اليه . لا افعل شيئا حتى امسح على خافقه المعذب . بيننا السنين والتجربة . بيننا كما قال الشاعر ، كلانا . وهناك تحت الشمس التي تغرب ترقد ام البنين في نومها الطويل قرب النبع والجميزة ، زمن بعيد بعيد ، سقى الله التراب ، والمرأة الغريبة جاءت من بلاد بعيدة ، في مثل عمرها ، ووقفت امام الميكرفون وانتشرت صورها في الجرائد ، انها لم تسمع بذلك الاسم من قبل ، وتحتكم الطاعنة في السن والجريمة الى النسيان ، ويغيب الشيخ ويحضر في ذاكرة التراب والجسد ، لكن انت ما عليك : تراني هنا لكني ارى طيورا تحجب الفضاء ساعة المساء تحلق وتصفق وتهبط كالشتاء ، تقف ليس على فوهات البنادق كما في الصور على الحيطان. تقف على شواهد القبور مثل الصليب او القنديل ، وتغني قبل ان يجن الليل وبعد ان يجن الليل وقبل ان يطلع نهار اخر . تغني الطيور عندما استيقظ ، وصوتها اعلى من الباب الموصود وصوت المؤذن ، ولا تعرف انت لماذا تستعير لهجة الشهداء اليتامى ، وتناديني ..

ـ اهلا وسهلا ، حان ميعاد المغرب ؟

ـ لا ادري ، ليس بعد .

واذ لم يخرج الشيخ مما هو فيه ، قلت جئت في موعد لم يناسبه ، امشي انا وارجع مرة ثانية ، وادعه يرتاح .

ـ وهل النصف ساعة كثيرة ؟

ـ بقيت عندك اكثر من ساعة ، لا تمل يا والدي ، ولكن لعلك تحتاج ان ترتاح .

ـ اذا انت عازم على الذهاب ، فامكث قبل ذلك ، قليلا لنتحدث، اننا لم نتحدث بعد .

رفع جذعه وسويت له الوسادة .

ـ ايوه ، اسمعني يا ابني فانا اريد لك الخير ، تاخرت هذه المرة ولم ارك من مدة ، انت تقول من اسبوع يجوز . انا لم اقلب ولم يتغير رأيي كما حسبت . لكن الذي حصل ليس مفاجأة واحدة ، بل اثنتان : عندما ابتدأت ولم نصدق ثم صدقنا وفرحنا ، وعندما توقفت. انت تعرف نحن لا نثق بالهدنة فعدونا ماكر يعرف ماذا يريده ، ولا بهيئة الامم ولا المؤتمرات ، كل ما صدقنا ذلك ، كذبنا على انفسنا . لكن هل كانت الحرب غلطا ؟ . عيب ان يقول هذا الكلام احد . عيب ان تقول للجنود الذين اقتحموا الحصون مثل الاسود وطردوا الاعداء من المواقع ، ورفعوا اسم الجندي العربي في العالم ، عيب ان تقول لهم انكم غلطانين . انا لا اقصدك انت ، اقصد من يقول . كانت الرابعة التي ايقظت الحمية النائمة ، واثارت الدم الذي استرخى ، والرابعة تجعل الشرش يطق كما قلت لك اول ما ابتدأت ، وانا جربت وعرفت ذلك من ايام الثورة والجهاد المقدس ، بعضكم لا تعجبه ثورتنا ، يمكن الحق معكم . يمكن المجاهدين ما قصروا وما وفروا حيلة ولا تضحية بالروح وبالنفس والنفيس . لقد انتظرت الرابعة ، وكان قلبي يحدثني انها ستقع ، وان كنت في بعض الاوقات اخاف ان لا تقع او يبدأها عدونا او ان لا يطول عمري حتى اشهدها . انتظرتها ليس كما ينتظر المريض الدواء ، لان امتنا ليست مريضة والحمدلله ، ولكن كما ينتظر الجريح الزاحف على بطنه ذخيرة لبندقيته الفارغة ، لان الجريح في هذه الحالة لا يقدر ان يقف ، وقعت الحرب فوقفنا بعز ، وايام عبد القادر الشهيد ، خضت معركة عنيفة ، اهم معركة في حياتي ، معركة قوية ، وكدت الاقي وجه ربي لولا الرصاصة الرابعة . هل تصدق ما اقول ، هل تقدر ان تتخيله ؟. اول طلوع نهار هجمنا على مستعمرة قريبة من القدس ، كنا بضع عشرات من المجاهدين يقودنا البطل عبد القادر . بعض المجاهدين سبقونا وزرعوا الالغام انتظرنا حتى انفجرت، وبدأنا هجومنا . فاصبت برصاصة في ساقي قبل ان افعل شيئا . ماذا يقول الواحد في مثل هذا الموقف . انها المعركة وعلى الانسان ان يتوقع كل شيء ، وكان الموقف صعبا لان المعركة في اولها فكيف اتراجع امام رفاقي الذين تعاهدت معهم على الموت . سقطت على الارض واخذت ازحف على بطني في حقل من النار والبارود ، ارمي الجنود اليهود بكل ما اعطاني الله من عزم . وتقدمت قليلا وزاد حماسي بعد ان تاكدت اني يمكن ان اقاتل رغم ما اصابني ، وبعد ان ادركت ان اصابتي ليست مميتة . فاذا برصاصة ثانية تستقر في كتفي الايسر ، فسقطت مني البندقية وكانت لحظة قاسية ، لحظة سقطت على الارض من يدي ، ضاقت انفاسي وشعرت بالخجل بيني وبين نفسي ، وكان ذلك مؤلما كان ثوبك يسقط عن بدنك على مرأى من الناس . ولم اتحمل الموقف ، لكني تحاملت على نفسي اخيرا وتأبطت البندقية ، وضعتها تحت ابطي مثلما تضع الكتاب ، ورآني احد المجاهدين فهجم علييحملني ليسعفني، غير ان ذلك كان مستحيلا ، لان المعركة كانت لا تزال مشتعلة بعد ان جاءت لليهود مجموعة اسناد ، وبدأت تضرب علينا طوقا . وادركت اني اذا تركت قياد نفسي فسأموت ببطء واثير الارتباك في صفوفالمجاهدين، وقلت له اعطني ذخيرة ، فأعطاني بندقيته واخذ التي لي وركض الى الامام ، وزحفت انا حتى بلغت صخرة كبيرة ، تمترست وراءها . ان المعركة تجعل حتى من الجبان شجاعا ، والدم كما يقولون يستسقي الدم ، وبدأت ارمي الجنود اليهود ، حتى اصابتني رصاصة ثالثة في قدمي ، لم اعرف من اي جهة اتجهت الي . في مثل هذه الحالة يشعر الانسان بالمفاجأة ، كأنه لا يصدق ، كأن ما اصابه اصاب غيره وليس هو . وكانت لحظة حزينة اختلط منها عقلي ، اخذت ارى وجوه اهلي في يازور يرقصون ويتحدثون ويبكون في نفس الوقت ، سمعت صوت امراتي وصوت الاولاد ينادون علي بجزع . فشعرت بألم الفقد كأنني طفل . انني لا انس تلك اللحظة . التصقت بالارض الدافئة ، كان جسدي هو الدافيء وليس الارض ، فتحت عيوني لكني لم ارفع رأسي. رأيت نورا جديدا وصوتا يهتف بي ، رأيت الكعبة تغتسل بالنور والنبي عليه الصلاة والسلام يتقدم الي ويمسح على رأسي . رأيت ابي وامي وقلت الحمد لله على ما اعطيتني . وانا في ذلك ، كنت ازحف امسك بطرف صخرة او جذع شجرة واجر بندقيتي التي اصبحت ثقيلة. واسمع صوت الرصاص الغزير ، اسمعه هادئا مثل مطر خفيف ، ياتي من مكان بعيد ، كانني في رؤيا ، كانني في حلم وليس بحلم . وجعلت اتطلع حولي لارى احدا من رفاقي ، لاوصيه بكلمة او كلمتين ، وانا اقرا

مي علوش

مفاجأة للصغار

« بعد عملية الخالصة »

سآخذكم الى البلد
فان دماءهم سالتْ تضيء الدرب
للابد
لترشدَ أرجلا صغرى
لحب دائم غردِ
الى البلدِ

* * *

سآخذكم
ففوق سماء بلدتنا
تدوّر مشرقا قمرُ
وفتّح ساحرا زهرُ
وغض هو نيسان كما كانا
يرش الزهر اشكالا والوانا
ويسقط فوق بلدتنا
على الرمان نعسانا
وفي دالية بالكرم ريانا
وفي يابسة الاعواد نديانا
تربع في حديقتنا
تدلى فوق بوابه

وعن سور ولبلابه
وعن جُدر مسيّجة
وفي ارض محرّجة
وحول العين في الاعشاب ميادا
وبين الوعر في الغابات قد عادا
شذاه معطرٌ عبق
ومزدان به الشفق

* * *

سآخذكم
هو الوعد الذي لا غير ننتظر
الى ارض سواها يرفض النظر
وترجع مثلكم « سلوى »
وكل صغار بلدتنا
فأن دماء ابطال لنا سالت
لترشد ارجلا صغرى
الى الدار ..
هناك عتيقة الشجرات تحت ظلالها
دارُ
تطل على روابينا
وتسهر في اماسينا
بنافذة مدوّرة

بها دون الدّنى للقلب الحان واشعار
هناك تطيب اقوال واسرار
وموالٌ واخبار ..

* * *

سآخذكم
سنهجر لفح غربتنا
ونارا في حنايانا
فقد حرك عملاق بنادقه
هنالك عانق الترب الذي بالشوق عانقه
لكي نرجع للدار
الى الجد الذي في الباب ينتظر
الى الوطن الذي أنتم له المستقبل النضر

* * *

سترجع مثلكم « سلوى »
تزين دُرب حارتنا
ويرجع « سالمٌ » معكم
وكل صغار بلدتنا

ايات قرآنية . ويظهر ان اعضائي قد تحللت ورحت اغفو واغيب ، تصور ذلك المنظر في المعركة . واذا بالرصاصة الرابعة تعاجلني ، وتصيبني في طرف رقبتي من الخلف . سبحان الله على تلك الرصاصة . الدنيا يغمرها ضوء كاشف بعد الدخان والظلام ويتردد في اركانها الصوت الحبيب : الله اكبر الله اكبر . جند الله يرددون النداء وتردده معهم السموات . انهض فقد جاء نصر الله ، وقفت كأنني لم يصبني شيء . الدم ينزف مني كأنني استحم في ماء ساخن والدنيا تهتز في نظري ، من النشوة والحرارة ، ساقي تضرب الارض بعنف وانا اتوكأعلى البندقية واهتف يا رب ، يا ناصر الستة على الستين ، كنت اريد ان افعل اي شيء . كنت اريد ان امسك باي واحد منهم ، باجدع واقوى رجل منهم واقول له انا فلاح فتعال نتقاتل مثل الرجال بدون سلاح ، ان كنت شجاعا وقويا . وارتميت على الارض ، بخفة وبقصد ، فقد ظهر امام عيوني بعضهم وقلت اننا انتصرنا ، وقد عادت الي حياتي من جديد .. لكن ماذا اقول لك ، ضغطت على الزناد ، بقوة وبغيظ ، حتى تيبس الدم في اصابعي ، لقد نفذت ذخيرتي ، فتوقفت عن اطلاق النار .

ولم اجد نفسي الا وانا نائم على الفراش في بيت احد المجاهدين، حملوني ونزعوا مني الرصاصات واسعفوني . هكذا عرفت في ما بعد ، ولو تأخرت الرابعة قليلا لقضيت دون ان يعرف احد .

بعد ذلك قمنا بعمليات كثيرة . حتى جاءت الهدنة . وبعد الهدنة منعونا من ان نحارب عدونا ، لان بريطانيا هي التي ستحل المسألة . حتى وضعنا السلاح من اجل هجوم الجيش العربي والحرب العربية . ثلاث حروب يبدأونها هم ونحن نتراجع ، حتى بدأنا الرابعة ، فكانت مثل الرصاصة الرابعة في ايام العز ، جعلت الشرش يطق والروح تنفجر والامل يكبر .

هل عرفت وصدقت الان لماذا تفاءلت بالحرب الرابعة ، لماذا استرجعت شباب روحي في هذه الايام ؟ .

لقد اطلت عليك فلا تؤاخذني . الواحد عندما يبدأ يتكلم ينسى نفسه ، ذكريات ذكريات والعمر يمضي ولم يبق غير هذا الجسد الضعيف . الحمدلله على ما اعطيتني ، وقعت الرابعة قبل ان اموت ولم ايسكت العرب ، ولا ناموا على ظلم اوطانهم . لكن الحرب توقفت الان ، فهل نفذت الذخيرة كما نفذت بندقيتي يومها ، لا اعرف الاسباب الصحيحة . الم تتوقف ؟. قل لي انت ما هي الاخبار ، ماذا كتبت الجريدة اليوم ، سألتك عندما جئت ولم تقل لي .

. . . . .

اراك ساكتا ، ما هي الاخبار ، لماذا لا تريد ان تتكلم ؟ .

الكويت .